

الكتاب الورقي في مواجهة المد الإلكتروني

- مرافعة بيانية ووقف نقدية -

أ. عبد المالك مسعودان

جامعة جيجل

هذه المقالة ليست سبحا ضد التيار الإلكتروني الراهن، ولا تغريدا خارج السرب الذي ينادي الآن بضرورة مواكبة العصر، وركوب موجه التقنية، ولا هي مكابرة للحقائق العلمية المستجدة، وللواقع الحياتي الجديد، ولا هي إنكار لاجبايات الوسائط الإعلامية، ولمفاعيل الاتصال الإلكتروني، ولا هي - كما قد يتبادر - حنين (نوستالجي) مجاني لعادات القراءة التقليدية، وأساليب الكتابة الورقية، ولكنها - أو هذا ما تسعى إليه - وقفة متأملة متأنية وسط هذا الغبار التكنولوجي اللاهث الذي لا يتوقف ولا يني، وقفة فكرية لها أدلتها واقناعاتها الذاتية، تأمل أن تنتصف لطقوس القراءة الماثورة والأثيرة وتنافح عن الكتاب الورقي الأثير، عن قيمه وفوائده وموارثه، التي لا ينكرها إلا جاحد أو معاند، في مواجهة هذا المد الإعلامي والإلكتروني العاتي، بأمواله الساحرة وآلياته الباهرة. هي إذن مرافعة عقلية في حق الكتاب الورقي، تنحاز إليه 'ومدافعة متعاطفة عن صديقنا الكتاب وسلطانته في مواجهة السحر الإلكتروني وهيلمانه.

وإن كنا لا نخشى رغم هذا على صديقنا الكتاب الورقي (الحاضر في قلوبنا قبل أيدينا) من الإغراق أو الإحراق في خضم هذا الواقع التكنولوجي، فإن هناك جملة من الملاحظات والتحفظات لا بد من إبرازها إزاء ما يسمى بالقراءة البديلة والنص الإلكتروني.

مقدمة لا بد منها: من الشفاهة إلى الورق

من المعلوم أن الإنسان قد قطع أشواطاً بعيدة متراحبة في كتب فصولاً مطولة عميقة في سيرته الذاتية والجماعية، وتدرج في تخلقه العلمي مسيرته الحضارية والثقافية والفكري والأدبي أطواراً عديدة، ابتداء بالشفاهة والتواصل الكلامي، مروراً بالكتابة والنسخ المطبعي أعصاراً مديدة، وحتى الساعة، ووصولاً - وليس انتهاء - إلى الاتصال الإلكتروني والنشر الضوئي، الذي نحن عند عتباته على استحياء (فهي نقلة من النقر على الآذان إلى النقر على "الفتران" !).

(وكان الإنسان في كل تلك الأطوار والمراحل) من اللسان والفم إلى اليد والقلم ثم إلى المطبعة الآلية وانتهاء إلى الصورة الضوئية، يتلقى العلم والبيان، وينقلهما باختلاف وسائل النقل

من ميدان إلى ميدان، تحدوه رغبة عارمة في المعرفة والاكتشاف ولا يقف عند كشف حتى يتطلع إلى غيره ، لا يكل ولا يني).

فمنذ اكتشافه النار الأولى، واندلاع شرارتها الدافئة في قلبه المتعطش إلى المعرفة المتطلع إلى كل خاف مستتر في هذا الوجود الرحب، وهو يتشوق إلى نار أخرى أسطع وأروع وأشد وهجا وبهجة، فكان ميلاد الطباعة بمثابة تلك النار الثانية، التي استطار ضياؤها ونورها في العقول والقلوب أحيالا طويلة، وراح الناس - مثل كليم الله موسى - يقبسون من هذه النار الساحرة الجذوات، ويقرؤون في ضوئها الآيات تلو الآيات.

فالعالم كله لم يكن يقرأ، بالمعنى الحقيقي العميق للكلمة، قبل اختراع الطباعة على يد الألماني " غوتنبرغ " أواسط القرن الخامس عشر للميلاد، إذ كان الكتاب الورقي المطبوع قبل ذاك حكرا على ذوي الامتيازات والبطانات وأهل العلم^(١) . فجاءت المطبعة الآلية وسيلة رخيصة لنشر الكتاب المقدس أولا، متداولاً ميسراً بين الناس، ثم لنشر وتيسير مختلف العلوم و المعارف والآداب تاليا. ولكن شيئا من القداسة والسحر ما يزال يرافق الكتاب الورقي بعد ذلك.

فالورق ، هذه المادة السحرية الحية - كما يعبر " جون لوما - " أصبحت " حجر الزاوية للحضارة على مدى ألفي سنة فعلى الورق تألفت مواعظ التاريخ وآيات الكتب المقدسة و سطعت شعلة عبقرية الإنسان عبر الزمان والمكان... وحينما خرجت الكلمات من الشفاه وأخذت مكانها على الورق تغيرت طريقة تفكير الإنسان، وتعمقت ذاكرته^(١)

لقد صار الكتاب الورقي المنسوخ باليد والقلم أو المطبوع بالآلة والمعدن، رفيق الإنسان الدائم في دربه الحضاري/ الوجودي الطويل، يستأنس به من وحشة الجهل ويستضيء به في ظلمة الوجود، ويستريح إليه أحيانا من عناء الحياة وعنت البشر ويستروح أحيانا بين أوراقه ومداد حروفه، روح جنة معرفية / أدبية، رفاة ساحرة، يجد فيها ما شاء عقله وقلبه من الأكل الرغيد والظل المديد). (أو لم يكن الورق في أصله مصنوعا و مقطوعا من شجرة وارفة !)

الثورة الالكترونية والنص البديل:

واستفاق الإنسان القارئ المتزمل بالأوراق ، في هذا العصر الالكتروني الكاسح ليفاجأ ، بعد ألفة غافلة، بهذه الثورة التكنولوجية الهائلة، بهذا العالم التقني العجيب، وليكون شاهدا على مرحلة تاريخية تغير فيها المشهد الحضاري والثقافي تغيرا جذريا لافتا مرحلة أقل ما يقال عنها أنها

متوترة متقلبة، سريعة متوتبة، تغلغت في نسيجها المتشابك ترسانة رهيبة من التقنيات المتطورة والآلات الحديثة، بل إن خيوطها الدقيقة والخشنة على السواء قد صنعت من غزل تكنولوجياي فاره باذخ، بحيث غدا من المتعذر- إن لم نقل من المستحيل- أن يحيا الإنسان العاقل في خضم هذا الواقع التقني وهو غافل أو متجاهل لهذه الحقيقة.

وها هو العالم اليوم ينتقل ، بقفزة نوعية، ومع ثورة الوسائط الإعلامية والحاسب وبنوك المعلومات والشبكات الرقمية والأقمار الاصطناعية.. ينتقل مع هذه التقنيات الالكترونية الهائلة"من الإنتاج الثقيل إلى الإنتاج الناعم، ومن العمل اليدوي إلى عمال المعرفة، ومن وسائل النقل التقليدية إلى الوسائل المتعددة، ومن الكلمة المطبوعة إلى الصورة المرئية..."⁽²⁾، وأصبح الحديث الثقافي/ التقني اليوم يدور حول ما يسمى بالنشر الضوئي، والنص الالكتروني، والقراءة البديلة، والإبداع التفاعلي... وكان لهذه المصطلحات/ المفاهيم الجديدة ولواحقها من الثقل والأسر، والرعب والسحر، ما أثر على نظرة الإنسان الحديث إلى الثقافة التقليدية والكتاب الورقي وتوابعه من طباعة ونسخ وأوراق وأقلام و مشقات وآلام. وهكذا، وفي ضوء هذه المستجدات، فإن لفيفا من المثقفين والإعلاميين والتقنيين يشيرون بولادة نص جديد: " يختلف عن النص المكتوب من حيث عناصره وبنيته وطريقة اشتغاله، هو النص الالكتروني الذي يكتب بواسطة الحواسيب والأنظمة البصرية، وبذلك تحل الأشرطة والأقراص والوحدات الضوئية اللامادية محل الحبر والقلم والورق الثقيل، وتحل الأبجدية الرقمية السيالة محل الأبجدية الحروفية الثابتة"⁽³⁾

تساؤلات واستشرافات:

فهل ستعلن الكلمة المطبوعة موتها أمام ميلاد الصورة الضوئية؟ وهل انقضى (زمن الجسم والورق) لينهض على أنقاضه (زمن الرقم والضوء)؟- كما يعبر علي حرب- وهل سيشهد صديقنا الكتاب الورقي نهايته قريبا- كما نذرنا بتبجح بعضهم -أم أنه سيشهد ولادة ثانية مع هذا العصر التكنولوجي المتمحض؟

والاهم من ذلك -على المستوى النفسي- هل سيلفت النص الالكتروني الإنسان الحديث عما ألفه طويلا من صحبة الكتاب الورقي؟ فيحل الكتاب الضوئي الجديد محل الكتاب الورقي القديم، ويحتل مكانه العتيد ويزيحه عن مكانته الرفيعة في قلب وعقل هذا الإنسان الأخير؟

وإن له من سلالة اشتغاله وسهولة استعماله، ومن شدة أسره ورهبة سحره، ما قد يمكنه تلطف عصا الكتابة العريقة وحبالها وابتلاع الكتاب الورقي الأليف واستبدال آليات القراءة التقليدية؟ وهل لنا أن نذهب في استشراف المستقبل الحضاري والتقني لهذا الإنسان الأخير حدا فانتازيا مغاليا- على ما يتصور بعض كتاب الخيال العلمي- حدا يغدوا فيه هذا المارد الالكتروني هو المستحوذ على قلوب الناس، المسيطر على عقولهم؟ ويصبح فيه الحديث عن الجلوس الحميمي إلى الكتاب الورقي من قبيل النزعات الرومانسية أو الميول الرجعية التي عفا عليها الزمن؟! سنحاول هنا أن نتناوش بعض الإجابات عن هذه التساؤلات وغيرها، ولكن قبل ذلك، لنستمع إلى بعض الآراء والتصورات الوسطية المتفائلة بهذا الشأن.

تفاؤلات وتوليفات:

يتساءل الدكتور "قاسم عبده قاسم" إن كان الكتاب الالكتروني سيجعل من صناعة الكتاب الورقي، وكذا الصحف والمجلات، تختفي مع كل ما يرتبط بها من ثقافة وتقاليد ومفاهيم، ثم يجيب بأنه "لم يحدث أبدا أن قضى الحديد على القدم، وإنما أضاف إليه وطوره في خدمة المجتمع والإنسان... فنحن نستمع إلى نشرة الإخبار من الإذاعة ونراها على شاشة التلفزيون، ومع ذلك نبحث عن الصحيفة"⁽⁴⁾. بل إن الصحف والإذاعات رغم أن لها مواقعها على شبكة الانترنت، فإننا لا نستطيع أن نكتفي بالموقع الالكتروني ونستعفي به، مهما كان، عن الصحيفة والخبر المذاع.

فهذه الوسائل الالكترونية، على تطورها وتناوبها، هي وسائل إعلامية مضافة وليست خصما من رصيد الوسائل التي كانت متداولة من قبل- الكتاب الورقي بخاصة- ويصدق هذا على الإذاعة والتلفزيون والسينما، والتي بقيت جميعها إلى جانب الصحيفة والكتاب- كما يقرأ لدكتور قاسم عبده قاسم- فعلى الرغم من التطور الهائل في الوسائط الالكترونية والنشر الضوئي، إلا أن الكتاب الورقي "ما زال مزدهرا- كما يقول قاسم عبده بتفاؤل- وما زال القارئ يحتفظ بعلاقته الحميمة بالمطبوعات الورقية"⁽⁵⁾. فليس هناك داع للتخوف أو التحسر على مصير الكتاب الورقي، وليس هناك سبب يمنع وجوده وتطوره في ظل الكتاب الالكتروني، فهذا الأخير وإن كان يوفر عدة مزايا هامة وتسهيلات وتسريعات، إلا أنه "لا يحتمل الأفكار العميقة والفلسفات

والخاوارات والمجادلات التي نجدها بين طيات الكتاب الورقي⁽⁶⁾، إضافة إلى ميزات الصحبة والخصوصية والحرية التي يوفرها الورقي، ولا نجدها برفقة الالكتروني.

فوسائل النشر الحديثة بالرغم من فوائدها الكثيرة ومفاعيلها الهائلة كالتخزين الضخم للمعلومات، والاستيعاب والتغطية الشاملة، والتسريع الفائق وتسهيل النشر والتوزيع... إلخ، إلا أنها تبقى وسائل جديدة مضافة (وليست ضيفا) على الوسائل القديمة ولن تكون بأي حال، بديلا عن الكتاب الورقي.

هذه النتيجة المطمئنة، التي قد نصل إليها بالقليل من التأمل والعناء، وبالكثير من التوسط والانتقاء، وبالنظر المتفائل (المسلم) إلى الجانب الايجابي المشرق فقط للوسائط الالكترونية، ودورها البارز والخارق، دون جانبها السلبي المعتم والمؤلم. هذه النتيجة تغفل حقيقة صارخة وخطرة وهي ما يسمى "بقانون الإزاحة" في الأوساط التقنية والإعلامية، والذي يتناهى تماما مع مفهوم الإضافة والاعناء، وهو يعني "أن الوسيلة الجديدة ستحل محل الأقدم منها إذا كانت تؤدي وظائفها براحة أكبر، أو بطريقة أكثر إشباعا وإرضاء للإنسان: الكتاب، فالصحيفة، فالراديو، فالتلفزيون فالفيديو فالانترنت"⁽⁷⁾، هذا القانون الذي يتمشى أول ما يتمشى مع هوى الإنسان الذي يبحث عن الإشباع اللحظي والمعلومة السريعة، والوجبة الإعلامية الخفيفة والصورة الممتعة المريحة، يسير عكس اتجاه النظرة المتفائلة بادي الرأي، التي تحاول أن تربت على الوضع المتوتر، وتقرب بين الأطراف المتعارضة.

فالتعارض بين القراءة/ الكتابة التقليدية، ووسائط الإعلام الجديدة، أوسع من أن تسوى فيه هوة الخلاف، بالتقريب والتبسيط والوسطية: "إن الملتيميديا مرادفة للسرعة للإبحار على الشبكة، للرضى الفوري، للصور المتحركة، للإثارة الدائمة، وربما لتراجع الانتباه..."⁽⁸⁾، ونستطيع أن نضيف أنها مرادفة أيضا لتسطيح الوعي البشري، وتشثيت التركيز وتشريده، وتقليص الذاكرة الإنسانية وتجميدها^(**)، وتغليب العياني المشاهد على الذهني المتبصر، والمباشر الحثيث على الزمني المكث، والتواصل الآني على التفاهم العميق، والتلقي السلبي على التفاعل الايجابي... (ناهيك عن سلبيات أخرى أيديولوجية وأخلاقية واجتماعية ونفسية).

ورغم أن الكثير من تقنيات النص الإلكتروني تستعيد مجاز الكتاب القلم " باغنائه بروابط النصوص والأصوات والصور، إلا أن القراءة على الشاشة تبقى مملة وبطيئة بسبب الوميض الباهر وتغير شكل الصور حسب الاتجاه"⁽⁹⁾.

هذه هي القراءة الإلكترونية البطيئة المتشذرة، الساطعة الممتعة في الظاهر المسطحة المملة في الباطن، الممتلئة المتألفة، الخاوية المنطفئة، التي يريد أنصارها وحواريها أن يستبدلوها بالكتاب الورقي؛ بالذي هو خير.

الواقع الإلكتروني والأيام الجميلة للقراءة الورقية:

قد يبدو التردد أو التحفظ إزاء ثورة المعلومات والكتاب الإلكتروني بخاصة، وكذا الدفاع المبالغ فيه عن الكتاب الورقي وأيامه الجميلة، من قبيل الحنين الشاعر الرومانسي، أو نوعا من (النوستالجية) الحاملة التي تؤنس الكتاب الورقي وتشخصه وترى فيه المؤنس والجلس والحبيب والصديق..

قد يكون هذا صحيحا في جانب من جوانبه النفسية العميقة، فكثير من الناس، وقبل ثورة الاتصالات " كانوا يشعرون بلذة الكتابة واستقبال الرسائل، هذا الفرح البسيط لإيجاد ظرف في العلبة البريدية، حيث نعرف إلى كتابة صديق معين أو قريب ..."⁽¹⁰⁾ هكذا نجد أنفسنا وقد جرفنا هذا الشعور الرقيق نلوذ بذكريات الطفولة المتأخرة ويوميات الشباب، نستعرض في ألبوماتنا الملونة أمسيات الذوبان في دفء المطالعة الحميمية والقراءة المتأنية، بين يدي " حضرة الكتاب الورقي الممتع"، حيث تكاد عملية التوقف المتعب، أو الانصراف القاهر عن صفحاته، أن تشبه عملية انسلاخ واحز عن جلدة أخرى، جلدة معنوية حريرية كانت تلتصق بقلب الإنسان، وتمنحه الإحساس الغامر بالحرية والبهجة والأمان، أو تشبه الخروج الرمزي المؤسف من الجنة، جنة عدن التي طرد منها أبونا آدم، بعد أن تعلم فيها كل الأسماء، إلى جحيم الواقع والناس والأشياء.

يقول " غاستون باشلار" راجيا: " كم أتمنى أن تسقط علي في كل يوم من السماء سلال مليئة بالكتب ! (وليس بالأقراص والصور والنصوص الرقمية) أليست الجنة فوق السماء مكتبة هائلة؟ " ⁽¹¹⁾ بلى، وإن شيطان الآلة والإعلام اليوم يحاول أن يخرجنا منها وينزع عنا لباسنا من (ورقها) الأبيض، ليرينا سوء اتنا !

إن كل هذه الأمنيات الحاملة التي يفرع إليها المعترضون والمتحفظون إزاء الثورة الالكترونية، تنم، من وجهة نظر الفريق المعاكس من المهللين والمطبلين لوسائل الإعلام على توجس غير مبرر وخوف مجاني، بل على " تشنج وعصية جاهلية" - كما يصرح إبراهيم العسكري.⁽¹²⁾

وكثيرا ما يصادف المرء في أدبيات المناصرين للثورة الالكترونية " تحذيرات لهؤلاء المتشككين في التكنولوجيا، مضمونها أن الاعتراضات على تلك المسيرات التقدمية هي اعتراضات أشخاص من طراز قديم وعقيمة على حد سواء"⁽¹³⁾

وقد أشار " سعيد يقطين" إلى أن كثيرا من مثقفينا وكتابنا العرب ما يزالون " يعترضون على التعامل مع العصر وما يقدمه من إمكانات جديدة للتواصل والإبداع والبحث ... ولا يقدمون على التعامل مع هذه المنجزات في الكتابة أو المراسلة أو البحث إذ يعتمدون القلم والبريد والكتاب والمكتبة، ولا يستثمرون الأشكال الجديدة مثل الحاسوب والبريد الالكتروني والانترنت"⁽¹⁴⁾، ومبرراتهم في هذا الإحجام والإعراض والاعتراض هي ان الكتابة بالقلم " أكثر أصالة، أو ان التكنولوجيا معقدة وهي خلو من أي خيال أو إبداع"⁽¹⁵⁾، وهي مبررات واهية في نظر سعيد يقطين، تنم عن العجز والسلبية والتفوق والانغلاق، وتعبّر عن (تخوفات مجانية وتصورات مسبقة) عن النشر الالكتروني، الذي هو في حقيقة أمره تطوير للكتاب الورقي وتثوير له بوسائل أكثر سرعة وجمالا.⁽¹⁶⁾

وهو إضافة إلى هذا، يعيد الاعتبار إلى الكلمة، ويفتح آفاقا جديدة ومتنوعة أمام النص المقروء عبر الشبكات المتعددة، تعيد استعماله وتشغله بطرق إبداعية وإمكانات تخيلية (النص المركب - والنص المتفاعل...)، دون أن ننسى قبل ذلك، إسهامات الذاكرات الالكترونية بتقنياتها المختلفة وسعاتها الهائلة، في حفظ النصوص وتخزينها وتكثيفها وتصنيفها، وتحليلها وتركيبها، الإسهامات الجليلة التي لسنا بصدد إنكارها أو التهوين من شأنها.

وقفة نقدية أمام الثورة التقنية

لكن دعونا نتوقف قليلا عند حقيقة هذه المفاعل الواعدة للوسائل الإعلامية والإسهامات الجبارة للآلة الالكترونية، هل هي حقا ثورة وتثوير وتثوير، وهل هي حقا أكثر سرعة

ووفرة وأكثر حرية وجمالية؟ كما لا يفتأ التقنيون والإعلاميون يدندنون حول رؤوسنا، ويملأون آذاننا وعيوننا صباح ومساء. (***)

إننا لو رحنا نستدل على مجانية الكثير من الشعارات الواهمة التي يحملها المبشرون بالظاهرة الالكترونية ولواحقها، وخواتمها على صعيد الواقع الثقافي والاجتماعي، وبخاصة في مجتمعنا العربي المأزوم المألوم، لما أعوزتنا الأدلة والحجج ففي ضوء هذا الواقع، ونحن نعيش تحت مظلة هذه الأمية المعلوماتية الوارفة - كما يسميها سعيد يقطين - وبين نيران هذا التخلف الحضاري / التكنولوجي الضارب، بل وهذا التدهور الثقافي / العلمي المزري، الذي تعاني منه النخبة المحسوبة على الثقافة قبل عامة القراء والمتلقين - هل يحق لنا أن نتشدد بالحديث عن مصطلحات هي في الحقيقة رنانة في ظاهرها، فارغة في أكثر محتواها بل وخادعة واهمة - كثير منها - مصطلحات من قبيل (النشر الضوئي - النص الالكتروني - القارئ البديل - الإنسان الميليتميدائي) ... والقائمة تطول وتصل بك في غير طائل.

أليس هذا مجرد لغو فكري أو ترف عقلي، يحاول أن يجاري أو يساير موضوعة العصر، ويركب موجته ، ويعزف على نغماته وأوتاره، ويستعير أبجدياته ولغته يرطن بها؟ حتى لا يوصف بالتخلف والرجعية والعجز، أو يوسم بالبلادة والتكلس والكسل... فيكون حالنا كالذي يحكي انتفاخا صولة الأسد، أو - وأخشى أن - يكون مألنا كالتّي حاكت انتفاخا صولة الفيل !

لا يخفي أن هناك الكثير من المتأثرين والمبهوتين، بل والمغرورين بسحر التكنولوجيا الرهيب، اللاهثين من أجل اللحاق بقطارها السريع، الساهين في غمرة آلياتها المتطورة، ورفاهيتها الآسرة، الذين يمجدون الآلة، ويقدمون آلتها، ولا يرون إلا وجهها المصقول البراق، وينادون بأعلى صوتهم بضرورة (هل هي حقا ضرورة؟ !) تقدم القرابين البشرية على أعتابها الفارهة المتألثة بالضوء والنيون والفسفور، وينسون أو يتناسون، وهم في خضم انشغالهم الآني بما بين أيديهم وما هو حاضر ملح في أذهانهم أن وراء الأكمة ما وراءها، وأن هناك حقائق أخرى لافتة - بل مربعة أحيانا - تخفي وراء هذه الظاهرة الالكترونية، حتى لا نقول (الثورة) الخادعة.

يقول " جاك إيلول " صاحب كتاب " خدعة التكنولوجيا " : " ان فكرة أن الحاسب يخلق الحرية هي محض أسطورة، فالمعلومات التي يعالجها هي تلك التي يستعملها المجتمع أو

يستطيع استعمالها... والمقدرة الجمالية للحاسب هي غالبا شديدة السخف وتافهة وعشبية واستعلائية... " (17)

ثم يقرر أنه " لا توجد ثورة كمبيوتر بل مجرد صدمة كومبيوتر تحفز النظام الاجتماعي / التقني على التحرك أسرع في اتجاهه الخاص به.."، ويستدرك في الأخير قائلا: " إنني لا أشك في الأعاجيب التي يؤديها الحاسب.. لكن هذه الأعاجيب لا تغير المجتمع الموجود فعلا، باستثناء الإسراع الذي يجعل المجتمع أكثر هشاشة" (18)، هذا الإسراع الذي هو أبرز سمة لهذا العصر الالكتروني، سيؤدي حتما إلى الإرباك العقلي وعدم الاستقرار النفسي، والانزلاق على كافة المعطيات، فطريق المعلومات السريع وطوفان البيانات الكاسح؟، سيجعل الأفراد غارقين تماما، وغير قادرين على اتخاذ القرارات، " إذ ينتج عن زيادة المعلومات والمقاييس المعيارية شلل تام" (19) —كما يقول جاك ايلول—

الوفرة الزائدة- بعكس ما يروج له التقنيون والإعلاميون ويشيدون به- تخلق اغترابا وفقدانا للتوجه على الصعيدين الأخلاقي والاجتماعي" (20)

فالثقافة التقنية التي تقوم" على كتلة المعلومات الهائلة تؤدي إلى تشيع يجعل من المستحيل عزل العلاقات والمنظورات أو استيعابها أو الإلمام بالحقائق فالمعلومات مشظاة وأثرية ويفاقم التشوش في استعمال المفردات حالة الالتباس" (21)

من هنا فبدلا أن تكون وسائل الإعلام والاتصال والمليتميديا أدوات نافعة بيد الإنسان تحقق له ما يتطلع إليه من " سهولة في العيش وتحقيق للذات، أصبحت مجالا لتضييع إنسانية الإنسان، مع إيهامه بعكس ذلك... ولدفع الناس إلى مزيد من الاتصال لإشباع حاجات وهمية.. " (22) عن طريق هذه الفضاءات والقنوات التقنية الأنانية الترفهية، التي تظهر لهم أن التقدم والهناء والسعادة إنما هي الانخراط في هذه الشبكة الالكترونية الكونية حيث تسقط الحدود والضوابط، تحت وهم التقنية وأسطورة الوسائط.

إن حضارة الإلكترونيك واللامادي والعوالم الافتراضية بدأت تلغي الحدود المادية القديمة للزمان والمكان، وتوهن العلاقات الاجتماعية بين الإنسان والإنسان، إنها تجعلنا شيئا فشيئا نفضل الصورة والخيال على الواقعي والحياقي، " وتقودنا على الشرود بلا خطر في أماكن متعددة الألوان دون أن نترك مقعدنا. حيث كل شيء يصبح ممكنا... مجموعة افتراضية، رحلة افتراضية علاقات

افتراضية.. التكنولوجيا تعدنا بمعلومات أكثر لقاء جهد يتدنى باستمرار⁽²³⁾، ولقاء علاقات إنسانية تتفسخ شيئا فشيئا.

" إن الحكمة وبعد النظر لا يأتیان من السباق للبقاء في مهب الريح ولا من تجميع المعارف، فأتمن ما نملكه - مثل الأخلاق واحترام الآخر و التعاطف - لا يمكن أن نجده إلا في داخلنا ، فيما نعانق المستقبل لنبقى أمناء على إنسانيتنا التي لا تتغير"⁽²⁴⁾ وعلى صديقنا الكتاب الورقي الذي لا يبدل ولا يغير .

مجازات القراءة والديانة التقنية الجديدة:

يحدثنا " رفيق المعلوف" كيف كان في حداثة عهده بالكتاب، وإبان نشأته العلمية الأولى، يشوق إلى اقتناء زاده الفكري والروحي من الكتب، ويسترخص فيها حظه من الخبز والحلوى بالقروش الزهيدة التي كان يختصه بها والده كل أسبوع، يقول " فما إن أقبض الدراهم حتى أهرع إلى رصيف المعرض أشتري ما تيسر من الكتب، وأعود إلى البيت مرهفا جائعا أسد الرمح بكسرة خبز منسية في المعجن الخالي، ثم أقبل على زادي الآخر ألتهم عفونة أوراقه الصفراء ، وما تختزن من روائع الفكر والروح"⁽²⁵⁾، وكان يتساءل وهو يتصفح تلك النفاثس الفكرية ويبحر في لججها البعيدة " كيف يمكن أن تطرحها القاهرة، أم الفكر والأدب والبيان في ذلك الزمان، على رصيف بائق يدوسها العابرون إلى حيث لا يدرون، ويبيع الوراقون والتجار النسخة الكاسدة منها بما يعادل ثمن رغيف مغموس بالسكر والزيت"⁽²⁶⁾.

ليس من قبيل المجازفات أو المجازات الفارغة أن يتلاقى الكتاب الورقي - على صعيد التشبيه والبيان - مع الطعام والزاد في هذه الذكريات الطفولية التي يرويه لنا المعلوف (أحد المدافعين عن صديقنا الكتاب في مواجهة المد الإلكتروني). فما أكثر ما سمعنا هذه التشبيهات والاستعارات، حتى تأصلت في أذهاننا أنموذجا للحقيقة الرمزية التي يجسدها الكتاب الورقي في جوانبه الروحية والنفسية والفكرية لهذا الإنسان (الجائع- المتعطش) للمعرفة ، وما عبارات: القارئ المتذوق، القارئ النهم، المتشبع بالمعلومات عنا ببعيد.

بل وحتى في الطرف الآخر المقابل، نجد أحد المناصرين للنص الإلكتروني، والقارئ السيبراني- على حرب- الذي يصف عملية القراءة المقتضبة على الشاشة، " بالوجبة السريعة من الطعام" التي يتناولها القارئ المستهلك المستعجل، الذي ليس لديه وقت للاهتمام بالتفاصيل

والشروحات⁽²⁷⁾. فكيف ستكون حالة هذا القارئ الصحية بعد هذا (السندويتش) السريع إلا أن يصاب بوعكة ثقافية، وبعسر في الهضم الفكري، هذا إذا هضم شيئاً نافعا بالفعل !^(****)

يقول " غاستون باشلار" في نصائح أدبية- طبية رائعة: " امضغوا جيداً، اشربوا جرعات صغيرة، تذوقوا القصائد بيتاً بيتاً... لكن يجب أولاً أن نملك رغبة جيدة للأكل والشرب والقراءة ، يجب أن نملك الرغبة في أن نقرأ كثيراً، مزيداً دوماً، وهكذا منذ الصباح أمام الكتب المتراكمة على طاولتي، أقدم لإله القراءة صلاتي، صلاة القارئ الملتهم: أعطنا كفاف يومنا"⁽²⁸⁾ آمين !

وللأسف، ففي مواجهة هذا التأليه المشروع، وهذا التقديس الجائر للقراءة التقليدية،- كما يصفه باشلار- والذي يزيد من إحساس المرء بإنسانيته وحرية، وإدراكه لوجوده وغايته، ناهيك عن زيادة رصيده من الثقافة الحققة والمعرفة الحية- تقف هذه الآلة/الآلة التقنية الحديثة، ناهضة بمختلف وسائطها وقنواتها من أجل أن تفرض سطوتها وسيطرتها على الناس المبهوتين المخدرين، الذين أصبحوا "يؤلّهون الوسائل التقنية على سبيل التعويض، حتى لا يشعروا بأنهم مقتلعون ومغتربون. إن ما يحدث عالمي ومذهل ويتحدى محاولات السيطرة عليه واستيعابه..فهو خارج نطاق الإدراك، ومن ثم فهو إله"⁽²⁹⁾، وهكذا فإننا جراء خيبة محاولتنا للتحكم فيه، نكتفي بمجرد طلب خدماته، بل والخضوع أمام عتباته، "فالآلة اليوم ليست اقتصادية بل تقنية، وهي تتخذ شكلها الأكثر مباشرة في التلفزيون ووسائل الاتصالات عن بعد"⁽³⁰⁾

وهذه الديانة التكنولوجية الجديدة، التي انتشرت تعاليمها ومراسيمها في الناس انتشار النار في الهشيم- كما يقال- تطرح عدة مشكلات ومآزق اجتماعية ونفسية وعقلية وخلقية، ليس أقلها مآزق الغاية الوجودية والهوية الإنسانية والعلاقات الاجتماعية. وأرباب هذه الديانة وكهنتها ، إذ يدركون جانباً من هذه المخاطر والمآزق، يعمدون إلى زخرفة خطاباتهم وشعاراتهم، بمقولات من قبيل: (المجتمع التقني- الإنسان السيبراني- الوسائط المفكرة- الحاسب الصديق...).

ولكننا دائماً نعود إلى أسئلتنا الإنسانية البسيطة والبريئة- كما يقول جاك إيلول- " أية علاقات ؟ ومع من ؟ إن العلاقات والتبادلات بين البشر ليست سلعا مستقلة يمكن نقلها من مكان إلى مكان...وحقا إن هناك غواية لطمس الفرق بين طبيعة الاتصال البشري والاتصال عن طريق الآلات"⁽³¹⁾. فأين هذه الآلات الجامدة والتقنيات الباردة في علاقاتها بالكائن الانساني من العلاقة الحميمة الدافئة التي تجمع المرء بالكتب، ومن الحرية المرنة الواسعة التي يتيحها له في التفكير

والتحليل والنقد والتأمل والتخيل والإبداع. يقول محمد عدنان سالم معددا مزايا القراءة الورقية: " إن القراءة تتمتع بسبع مزايا تجعلها تتفوق على الوسائل الالكترونية وهي: حرية الاختيار، حرية الوقت والمكان الرخص واليسر، البقاء ودوام الاقتناء، سهولة المراجعة، سهولة التثبيت في الذاكرة سلامة اللغة" (32) ...

ففي القراءة التقليدية- كما تقول " ماري وين- " يستثمر الشخص أقصى قدرة إنسانية فريدة لديه ألا وهي التفكير اللفظي، انه ينتقل من الرموز الموجودة على الصفحة إلى شكل معين تملبه عليه طبيعته الإنسانية الخاصة ورغباته ومخاوفه وحاجاته الداخلية... فالقارئ تستهويه مخاطرة الإبحار في النص (الورقي طبعا)، وتأمل حياته الخاصة في ضوء المعاني الشخصية للكاتب" (33) أما الوسيلة الالكترونية (التلفزيون- الحاسوب...) فهي تقود الملتقي وتمسك بتلابيبه وتستحوذ عليه، وتجعله عاجزا عن استخدام أرفع قدراته العقلية وعن تلبية حاجاته الانفعالية العميقة لا الاثارية. إن تلقيه في هذه الحالة يتسم بالتميع وبالتشتت والسطحية والسلبية، وعدم القدرة على التبصر والتحليل، واكتشاف المعنى الإنساني وتنميته وتدعيمه.

إن نموذج القراءة الالكترونية، والثقافة التقنية عموما، هو نموذج خادع واهم في واقع الأمر، بل انه يشكل- كما يقول جاك إيلول- " صورة هزلية تافهة يريد التقنيون أن يؤسسوها ويفرضوها على الشعوب، يعينهم على ذلك الحضور المهيمن للتكنولوجيا وتطورها السريع، وكفاءتها الفائقة، وتطويقها، بل وابتلاعها، للمكونات الثقافية التقليدية" (34).

ولكن ما أبعد التلفزيون والحاسب والوسائط الإعلامية عامة عن أن تكون أدوات للثقافة بمعناها العميق والدقيق، وجوهرها الحي الذي يقوم على التساؤل والنقد، ومختلف جوانبها الإنسانية والتلقائية والإبداعية. " فمن المستحيل- كما يؤكد جاك إيلول- أن توجد ثقافة تقنية إلا إذا تم تقليص الثقافة واختزلها إلى مجرد تراكم معرفي" (35)، وبالتالي فإن بإمكان الثقافة التقنية بترسانتها العلمية الجبارة، وتراكماتها المعلوماتية الهائلة، أن تحل محل الثقافة الإنسانية والأدبية والروحية، وهذا محال.

القراءة الحقيقية وثقافة اللاكتب:

إن الثقافة الحقة والقراءة النافعة، هي التي تتعاطى مع القيم الرمزية للوجود الكتابي والحياتي الثري، بالتأمل والتألم والمعاناة، لا بالإلهاء والتسليية والسلبية، التي يتيحها بسهولة عالم

(اللاكتب) الإلكتروني - كما تسميه "ماري وين" - والذي قد صمم لخدمة أسلوب جديد للقراءة، ونوع بليد من القراء، " إنه كتاب تكفيه نظرة عجلى وقراءة متقطعة غير منتظمة، ومرور خفيف سريع بصفحاته، ولا يحتاج إلا إلى القليل من التركيز... أو التخيل الداخلي، وهو يوفر معلومات كافية للمواد السارة بصرياً... بينما لا يتشجع قارئ اللاكتاب عناء الدخول الصعب إلى عالم بديل، ولا يحظى بالإشباع العميق الذي تتيحه قراءة كتب حقيقية⁽³⁶⁾."

وتشير "ماري وين" إلى أن التأثير النهائي لأشكال الاتصالات الجديدة ربما "لا يقلل من حجم القراءة لدى الناس حالياً، إلا أن من الواضح أنه يغير ما يقرأه الناس والطريقة التي يقرأون بها... فالتغير الحاصل في عادات القراءة يبرز من خلال الاختلافات الواضحة في أنواع الكتب والمجلات التي تنشر وتباع اليوم... كتب الكمبيوتر، كتب الخبرات العلمية، الخدمة الذاتية، تحسين الحمية، التجميل..."⁽³⁷⁾.

فهذه اللاكتب الاستهلاكية، وهذه الأنماط القرائية الجديدة لا تبشر أبداً بخير لمستقبل أمة يفضل أفرادها التسمر الداهل الشارد أمام الشاشات المضئية المليئة بالصور والتفاهات، على العكوف الواعي أمام صفحات كتب فكرية وأدبية وارفة بظلال الأفكار والمعاني، فنحن "نجلس الآن إلى جهاز التلفزيون أكثر مما نجلس إلى الكتاب، ونتسمر أمام الصور المغرية بعد أن كنا نتسامر بالأحاديث المؤنسة"⁽³⁸⁾ كما يقول علي حرب.

إن القراء اليوم إذا استسلموا لهذا الإغراء الإعلامي المثير، وفضلوا أن يغلقوا عقولهم المستبصرة، ونبذوا القراءة الحقيقية وراء ظهورهم "من أجل ثني جذوعهم عبر كرسي معلق غير مريح، ملتقطين قصاصات من البيانات المريحة من هنا وهناك، ومتجولين عبر البريد الإلكتروني في ذلك الطراز الجديد من الخراب النحوي، فستكون النتيجة صنع قراء حقيقيين"⁽³⁹⁾ يقول "وليام جاس" متهمكماً. ولكن من بين الفرقة الأخيرة من القراء التي بقيت قادرة على التعقل، هناك من يؤكد أن هبة "الكتب منحت فرصة الاستقلال لملايين العقول.. الكتب جعلت الغني أغنى، والكتب ستجعل الذكي أذكى"⁽⁴⁰⁾.

الكتاب الورقي والحصار الإلكتروني: ماذا بعد؟

إن الإنسان من طبعه أن يؤثر السهل على الصعب والراحة على التعب كما يقول "محمد عدنان سالم" - مما جعل كتاب الإعلانات ومصممي (الكثالوجات) "يستخدمون الصور المتابعة

لتغني الناس عن القراءة وأخذت القراءة الخفيفة العابرة تراحم القراءة الجدية المثمرة، كما أخذ السمع ينافس العين عبر الكلمة المذاعة، ثم تعاونت العين مع الأذن لصرف الإنسان عن القراءة وجذبه إلى الشاشة⁽⁴¹⁾، هذه الأخيرة التي تركز على المواد الترفيهية والأخبار المثيرة، والبرامج المشوقة، فلا تترك للكتاب وقتاً، ولا تلفت إليه نظراً.

وقد نشأ خلال ما يزيد عن أربعين سنة - كما يصرح رفيق المعلوف - "جيل لا يقرأ إلا المختزل من الإعلانات وأخبار الجرائد ومواد المنشورات العادية، حيث لا يضطر إلى إجهاد الذهن.. حتى إذا بزغ فجر الكمبيوتر في أواخر القرن الماضي.. كان قد بلغ السيل الزبي، فانصرف الناس نهائياً عن إجهاد الفكر والنظر في القراءة"⁽⁴²⁾، ومما زاد من انصراف الأجيال الجديدة عن القراءة الجادة، ازدهار البرامج والأفلام الغربية، وكذا عناصر التسلية والتوعية وسبيل المعلومات التي يوفرها الكمبيوتر، وشبكة الانترنت ذات التغطية السريعة للمستجدات اليومية، مما تعجز عن تأمينه أهم الكتب والموسوعات.⁽⁴³⁾

إن الأسلوب السهل السريع، والمضمون الممتع المغربي، اللذين تعتمدهما الوسائط الإعلامية واللذين يستدعيان "الإطلاع الوشيك دون المطالعة الجدية المركزة" قد حصر الكتاب الورقي في دائرة من العزلة والكساد، إلا ما اقتصر منه على أبواب الطرائف والتسلية والرواية المثيرة للخيال الشعبي والقصص الذي يغري ولا يغني⁽⁴⁴⁾

لكن رغم هذا الحصار الالكتروني المضروب بحيلة خفية، على الكتاب الورقي إلا أنه يأبى إلا أن يقاوم ولا يساوم، ويأبى إلا أن يتم دوره الذي ابتدأه منذ قرون عديدة، فما زالت القراءة - القراءة الحقيقية - بخير وعافية لدى طائفة من القراء الواعين، وما زال مكانها العتيق الحميم في قلوب وعقول الكثر ممن لم يبهتهم سحر الآلة ولم ترهبهم أعاجيبها ومعجزاتها.

يقول "رفيق المعلوف" الكاتب والشاعر اللبناني، في قصيدة ينتقد فيها العالم الالكتروني والانترنت⁽⁴⁵⁾:

لكن معجزة الحاسوب معصية	أضفت على الزور تمويهها بلا حذر
وكل ما تمليه "انترنت" مصطلح	في الظن يخبو ولا يبقى على أثر
ما ليس يأتيك من كد يصاحبه	عقل تجاوز حد العلم بالعبر
تفاهة ضللت أخلاط مجتمع	ينأى عن الصعب في ميل إلى الخدر

هل كان تحكيم آلات مكهربة
أشرع ذكاءك ان الدهر مرتكب
إثم الضلال سدى في آخر العصر
واخفض إلى الكتب الفيحاء تنج بما
إلى الحقيقة من تخيل منتحـر
ما ليس يقرأ بالعين التي عقلت
مجاهل الطرس برق فاقد المطر
إني أعيدك من سحر تهيم به
فتنتهي بعده في مأزق خطـر

وأقول في النهاية: نحن انما خلقنا من أجل القراءة الجادة والكتابة، من أجل المعرفة الحققة والحبة، وما باقي محطات الحياة سوى وهم خادع وهو تافه، أو تربص ممل وانتظار فارغ.

الهواش:

- (*)- إن الكتاب المخطوط الذي يكلف استنساخه المبالغ الطائلة كان حكرا على الملوك والأعيان ورجال الدين يحفظونه في خزائهم حفظ الجواهر النادرة بعيدا عن متناول عامة الناس.
1. أنظر مجلة الفيصل: عدد 220 يناير/ فبراير 2000، الرياض، السعودية، من مقال سحر الورق، ص 33-34.
2. علي حرب: حديث النهايات، فتوحات العولمة ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 2000/1، ص 139.
3. نفسه، ص 139
4. أنظر: مجلة العربي، عدد 564، نوفمبر 2005، ص 26.
5. نفسه، ص 29.
6. نفسه، ص 29.
7. صالح خليل أبو إصبع: الاتصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة، دار أرام للنشر - الأردن، ط 4، 2004، ص 127.
8. فرنسوا لسلي - نقولا ماركيز: وسائل الاتصال المتعددة، ت: د فؤاد شاهين، عويدات للنشر والطباعة، بيروت- لبنان ط 1، 2001، ص 82.
- (**)- يقال إن الإله الفرعوني أوزيريس لما خط أول نقوش الكتابة على الجدران صاحت فيه زوجته " ايزيس" مخذرة: " هذه النقوش سوف تجعل البشر يفقدون ذاكرتهم"، وقد تحقق كلامها على حد بعيد. انظر مجلة العربي، عدد 512، يوليو 2001، ص 104. -
9. نفسه ص 82.

10. فرنسوا لسلي، نقولا مكاريز: وسائل الاتصال المتعددة، ص 127.
11. غاستون باشلار: شاعرية أحلام اليقظة، ت، جورج سعد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط1/ 1991، ص 27.
12. انظر: مجلة العربي، الكويت، عدد 500 يوليو 2000، ص 12.
13. أنظر: مجلة الثقافة العالمية، الكويت، عدد 103، نوفمبر / ديسمبر 2000، ص 186 من مقال: وليام هـ. جاس (حول المتعة الأبدية للأوراق و الطباعة والصفحات) ت. غادة الحلواني.
14. سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، المركز الثقافي العربي، بيروت/ لبنان، ط1/ 2005، ص 30.
15. نفسه، ص 31.
16. نفسه، ص 32.
- (***)- يرى بعض المهوورين من التقنيين أن الحاسب " سينهي الأعمال الغبية المحملة، وسيفتح العقول والأرواح، وسيأتي إلى الأرض بقوة تضيء كل شيء بنوره، لنرى قوته الكلية والسريعة"- كأنه إله و ليس آلة ! - انظر: خدعة التكنولوجيا، ص 325.
17. جاك ايلول: خدعة التكنولوجيا، ت: د. فاطمة نصر، إصدارات سطور، مصر ط1/ 2002، ص 328.
18. نفسه، ص 329.
19. انظر: خدعة التكنولوجيا، ص 329.
20. نفسه، ص 333.
21. نفسه، ص 158.
22. نفسه، ص 333.
23. فرانسوا لسلي- نقولا مكاريز: وسائل الاتصال المتعددة، ص 06.
24. نفسه، ص 127.
25. نفسه، ص 128.
26. انظر مجلة العربي، عدد 511 يونيو 2001، الكويت، ص 24.
27. نفسه، ص 25.

- (****) - هناك بعض الإعلانات الطريفة عن حاسبات " آبل " تقول: " خذ قضمة Bite وستقتنع " .. هناك إحالة لطيفة ودالة إلى أسطور آدم والفاكهة المحرمة التي فتحت عينه وعقله على عالم واسع من المعرفة.
28. أنظر: علي حرب: حديث النهايات، ص 141.
29. غاستون باشلار: شاعرية أحلام اليقظة، ص 27.
30. جاك إيلول: خدعة التكنولوجيا، ص 413.
31. نفسه، ص 413.
32. محمد عدنان سالم: القراءة أولاً، دار الفكر، دمشق - سوريا، ط 2 / 2002، ص 53.
33. جاك أيلول: خدعة التكنولوجيا، ص 411.
34. ماري وين: الأطفال والإدمان التلفزيون، ت: عبد الفتاح الصبحي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 247، يوليو، ص 91 - 92.
35. جاك إيلول: خدعة التكنولوجيا، ص 159.
36. انظر: خدعة التكنولوجيا، ص 161.
37. ماري وين: الأطفال والإدمان التلفزيوني، ص 86 - 87.
38. علي حرب: حديث للنهايات، ص 133.
39. انظر: مجلة الثقافة العالمية، عدد 103، ص 187 مقال (حول المتعة الأبدية للأوراق والطباعة والصفحات)
40. نفسه، ص 188
41. نفسه، ص 187.
42. محمد عدنان سالم: القراءة أولاً، ص 52.
43. مجلة العربي، عدد 511، يونيو 2001، ص 27 مقال : اعظم النكبات في تاريخنا الحديث، مقاطعة الكتاب ونبذه.
44. نفسه، ص 27.
45. انظر: مجلة العربي، عدد 514، سبتمبر، 2001، ص 94.